كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟

رؤى بديلة في العلوم الاجتماعية

تحرير

إيمان حمدي حنان سبع

ريم سعد ملك رشدي

ترجمة: شريف يونس

دار العين للنشر

كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟

رؤى بديلة في العلوم الاجتماعية

تحرير
إيمان حمدي حنان سبع
ريم سعد ملك رشدي
ترجمة: شريف يونس

الطبعة الأولى/ ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: بسمة صلاح
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٢٥٠ /٢٠١٢
I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 160 - 1

كيف نقرأ العالم العربي اليوم؟

رؤى بديلة في العلوم الاجتماعية

تحرير

إيمان حمدي حنان سبع

ريم سعد ملك رشدي

ترجمة

شريف يونس

دار العين للنشر

الفصل الخامس

القوة في القصة(*)

ميشيل-رولف ترويو

هذه قصة داخل قصة - مراوغة للغاية عند حوافها، بحيث يعجب المرء أين ومتى تبدأ وهل ستنتهي يوما. في منتصف فبراير 1836 وصل جيش الجنرال أنطونيو لوبيز دو سانتا آنا Antonio Lopez de Santa Anna إلى الحوائط المتهدمة لإرسالية سان أنطونيو دو فاليرو San Antonio de Valero في مقاطعة تيجاس Tejas. لم يكن هناك سوى بقايا قليلة من القساوسة الفرنسيسكان، الذين بنوا الإرسالية قبل أكثر من قرن، صمدت أمام الهجمات المشتركة للزمن وتوالي سكان أقل تدينا. فقد حوّل واضعو يد بشكل مؤقت، من جنود أسبان ومكسيكيون، المكان إلى نوع من قلعة ولقبوها "الآلامو" The Alamo، على اسم وحدة خيالة أسبانية كانت قد أجْرت أحد التحولات العديدة في هذا المجمع العشوائي من المباني. والآن بعد ثلاث سنوات من حصول سانتا آنا على السلطة في المكسيك المستقلة، احتل المكان بعض واضعو اليد الذين كانوا يتحدثون بالإنجليزية، ورفضوا الاستسلام لقواته المتفوقة. من حسن حظ سانتا آنا، كان هؤلاء أقل عددا، يبلغون في أقصى تقدير 189 محاربا محتملا، والبناء نفسه كان ضعيفا. سيكون الفتح سهلا، أو هكذا ظن سانتا آنا.

لكن الغزو لم يكن سهلا: استمر الحصار إثنا عشر يوما من القصف المدفعي. وفي 6 مارس، أطلق سانتا آنا النفير الذي يستعمله المكسيكيون تقليديا لإعلان هجوم حتى الموت. ولاحقا في نفس هذا اليوم اخترقت قواته الحصن وقتلت معظم المدافعين. لكن بعد أسابيع قليلة، في

21 أبريل، وقع سانتا آنا أسيرا في سان جاسينتو San Jacinto في يد سام هوستون Sam Houston، القائد المصدق حديثا على تعيينه قائدا لجمهورية تكساس الانفصالية.

تجاوز سانتا آنا هذه الكبوة وتولى أربع مرات قيادة المكسيك التي تقلصت مساحتها كثيرا. لكنه من نواح متعدده و مهمة يُعتبر أنه هُزِم بشكل مضاعف في سان جاسينتو. فقد خسر المعركة يومهاً، ولكنه أيضا خسر المعركة التي كسبها في الآلامو. فقد كان رجال هوستون يطلقون أثناء هجومهم المنتصر على الجيش المكسيكي هتافات متكررة تقول "تذكروا الآلامو! تذكروا الآلامو!". وبإشارتهم هذه إلى الإرسالية القديمة، صنعوا التاريخ بشكل مضاعف. فبوصفهم فاعلين، أسروا سانتا آنا وأخرجوا قواته من المعركة، وبوصفهم رواة منحوا قصة الآلامو معنىً جديدا. لم تكن الخسارة العسكرية في مارس نقطة النهاية في الحكاية، بل أصبحت تحولا ضروريا في الحبكة، محاكمة الأبطال، التي جعلت بدورها الانتصار النهائي حتميا وكذلك فخما. فبصيحة الحرب في سان جاسينتو، عَكَسَ رجال هوستون لأكثر من قرن فكرة انتصار سانتا آنا الذي حصل عليه في سان أنطونيو.

يشارك البشر في التاريخ كفاعلين وكرواة. ويوحي ازدواج [معنى] كلمة تاريخ history في كثير من اللغات الحديثة، بما فيها الإنجليزية، بهذه القسمة الثنائية. [وفي العربية أيضا–م]. تعني كلمة التاريخ في الاستعمال العامي كلا من وقائع الأمر وحكي هذه الوقائع، أي تعني "ماذا حدث" وأيضا تعني "ما قيل إنه حدث". يركز المعنى الأول على العملية الاجتماعية التاريخية والثاني على معرفتنا بهذه العملية أو على روايه قصة عنها.

إذا كتبتُ أن "قصة الولايات المتحدة تبدأ بمايفلاور" [السفينة التي نقلت أول مجموعة استوطنت نيو إنجلاند بأمريكا الشمالية عام 1620–م]، وهي عبارة قد يجدها كثير من القراء تبسيطية ومثيرة للجدل، لن يكون ثمة شك يُذكر في أنني أرى أن أول حدث مهم في العملية التي انتهت إلى وجود ما نسميه الآن الولايات المتحدة هي رسو سفينة مايفلاور. لننظر الآن في جملة مماثلة في بنائها للجملة السابقة وربما لا تقل عنها إثارة للجدل: "يبدأ تاريخ فرنسا مع ميشليه". لقد تغير معنى كلمة "تاريخ" بما لا يحتمل اللبس من العملية الاجتماعية التاريخية إلى معرفتنا بهذه العملية. فالجملة تؤكد أن أول حكاية مهمة عن فرنسا هي تلك التي كتبها جول ميشيليه Jules Michelet.

ومع ذلك ليس التمييز واضحا دائما بين ما حدث وما قيل إنه قد حدث. لننظر في جملة ثالثة: "تاريخ الولايات المتحدة هو تاريخ الهجرة". ربما يختار القارئ أن يفهم أن كلمتي تاريخ في هذه الجملة تركزان على العملية الاجتماعية التاريخية. وبالتالي يبدو أن الجملة توحي بأن واقعة الهجرة هي العنصر الأساسي في نشوء الولايات المتحدة. لكن هناك تفسير لا يقل صلاحية لهذه الجملة، وهو أن أفضل حكاية عن تاريخ الولايات المتحدة هي التي تحكي عن الهجرات. وسوف يصبح هذا التفسير أرجح إذا أضَفْتُ توصيفات قليلة: "التاريخ الحقيقي للولايات المتحدة هو تاريخ الهجرة، وهو تاريخ لم يُكتب بعد".

ومع ذلك ربما يركز تفسير ثالث على العملية الاجتماعية التاريخية بالنسبة للاستعمال الأول لكلمة "تاريخ" وعلى المعرفة والحكاية بالنسبة لاستعمالها الثاني في نفس الجملة، وبالتالي يرى أن أفضل حكاية عن الولايات المتحدة هي التي تكون الهجرة التيمة المركزية فيها. هذا التفسير الثالث ممكن فقط لأننا نقر ضمنيا بوجود تداخل بين العملية الاجتماعية التاريخية ومعرفتنا بها، وهو تداخل مهم بما يكفي ليسمح لنا بأن نقترح بدرجات متفاوتة مجازية المعنى، أن تاريخ الولايات المتحدة هو قصة عن الهجرات. و بناء عليه ليس الأمر فقط أن التاريخ يعني إما العملية الاجتماعية التاريخية أو معرفتنا بهذه العملية، ولكن أيضا أن الحد بين المعنيين مائع تماما.

على ذلك يعطينا الاستعمال العامي لكلمة تاريخ غموضا دلاليا semantic ambiguity: تمييز غير قابل للاختزال بين ما حدث وما يقال إنه قد حدث ولكن بنفس القدر تداخل غير قابل للاختزال بينهما. ومع ذلك يوحي هذا الاستعمال أيضا بأهمية السياق: التداخل والمسافة بين جانبي التاريخانية historicity ربما لا يخضعان لصيغة عامة. فمسألة التماثل والاختلاف بين الطرق التي يَكون بها ما حدث وما يقال إنه قد حدث، ربما تكون هي نفسها مسألة تاريخية.

الكلمات ليست مفاهيم والمفاهيم ليست كلمات: على الفارق بينهما تغذت طبقات من النظريات تراكمت عبر العصور. لكن النظريات تُبنى على الكلمات وبواسطتها. بالتالي لا يُدهشنا أن الغموض الذي قدَّمه الاستعمال العامي لكلمة تاريخ قد جذب انتباه كثير من المفكرين منذ العصور [اليونانية] القديمة على الأقل. ما يثير الدهشة هو نفور نظريات التاريخ من التعامل مع هذا الغموض الأساسي. بالفعل، بقدر ما أصبح التاريخ مهنة مميزة

اتَّبع المُنظِّرون ميلين متضاربين. فقد شدد البعض، وهم المتأثرون بالوضعية، على التمييز بين العالم التاريخي وما نقوله أو نكتبه عنه. وشدد آخرون، وهم الذين تبنوا وجهة نظر "بنائية"، على التداخل بين العملية التاريخية والحكايات عن هذه العملية. وقد عالج معظمهم هذا الجمع ذاته، أي قلب الغموض، وكأنه مجرد صدفة عارضة في الحديث العامي يجب أن تصححه النظرية. آمل هنا أن أبين أن هناك مجالا كبيرا للنظر في إنتاج التاريخ خارج الثنائية التي تقترحها هذه المواقف وتعيد إنتاجها.

تاريخانية أحادية الجانب

دائما ما تضلل العروض المختصرة للاتجاهات الفكرية وفروع التخصصات الأكاديمية القارئ بتجميع مؤلفين مختلفين في مجموعات. لا أحاول أن أفعل ذلك هنا. وآمل أن يكون المخطط التالي كافيا لبيان القصور الذي أضعه محل تساؤل[1].

أصبحت الوضعية سيئة السمعة اليوم. وهي تستحق بعض هذا الازدراء. حين تبلور التاريخ كمهنة في القرن التاسع عشر حاول الباحثون المتأثرون بشكل كبير بالرؤى الوضعية أن يُنَظِّروا للتمييز بين العملية التاريخية والمعرفة التاريخية. وبالفعل قامت احترافية هذا التخصص الأكاديمي جزئيا على افتراض هذا التمييز المنطقي: فبقدر ما تطول المسافة بين العملية الاجتماعية التاريخية والمعرفة بها بقدر ما يسهُل ادعاء احترافية "علمية". من هنا كان المؤرخون، وبشكل أخص فلاسفة التاريخ، فخورين باكتشاف أو ترديد الأمثلة التي يُفترض أن التمييز فيها لا يقبل الجدل لأنه لا يكون موسوما بالسياق الدلالي فحسب، ولكن وأيضا بتصريف الكلمة أو المعجم ذاته. فالتمييز اللاتيني بين res gesta و(historia) rerum gestarum، أو التمييز الألماني بين التاريخ Geschichte وكتابة التاريخ Geschichtschreibung، ساعدا في نقش اختلاف أساسي، يكون أحيانا وجوديا وأحيانا معرفيا، بين ما حدث وما قيل إنه قد حدث. وقد عززت هذه الحدود الفلسفية بدورها الحد الزمني chronological بين الماضي والحاضر، الموروث من العصور [اليونانية] القديمة.

لقد هيمن الموقف الوضعي على البحث الأكاديمي الغربي وقتا طويلا، بحيث أثَّر على

رؤية التاريخ حتى عند المؤرخين والفلاسفة الذين لم يعتبروا أنفسهم بالضرورة وضعيين. وما زالت معتقدات هذه الرؤية تحدد الشعور العام بالتاريخ في معظم أوربا وأمريكا الشمالية: دور المؤرخ هو الكشف عن الماضي، اكتشافه، أو الاقتراب من الحقيقة على الأقل. داخل وجهة النظر هذه ليست القوة power إشكالية ولا مرتبطة ببناء الحكاية في حد ذاتها. في أفضل الأحوال التاريخ هو قصة عن القوة، عن هؤلاء الذين فازوا.

العبارة القائلة إن التاريخ شكل آخر من أشكال الأدب التخيلي fiction قديمة قدم التاريخ نفسه، وقد اختلفت الحُجج التي استُعملت للدفاع عنها اختلافا عظيما. فكما يرى تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov، ليس هناك جديد حتى في ادعاء أن كل شيء عبارة عن تفسير، باستثناء النشوة التي تحيط الآن بهذا الادعاء[2]. ما أسميه الرؤية البنائية للتاريخ هو طبعة مخصوصة من هاتين الجملتين اللتين حازتا شهرة في العالم الأكاديمي منذ سبعينيات القرن العشرين. وهي مبنية على تقدم حدث في النظرية النقدية وفي نظرية الحكاية narrative والفلسفة التحليلية. وتؤكد طبعتها السائدة أن الحكاية التاريخية تتخطى قضية الحقيقة بفضل شكلها نفسه. فالحكايات محبوكة بطريقة تختلف عن الحياة، وبالتالي فإنها تشوهها بالضرورة، بصرف النظر عما إذا كان يمكن إثبات صحة الأدلة التي أقيمت عليها من عدمه. داخل وجهة النظر هذه يصبح التاريخ نوعا واحدا بين أنواع حكي عديدة، لا يميزه شيء سوى ادعاء الحقيقة [3]. وبينما تُخفي الرؤية الوضعية مجازات القوة خلف إبستمولوجيا ساذجة، تنكر الرؤية البنائية استقلال العملية الاجتماعية الاقتصادية. إذا مُدت الرؤى البنائية على استقامتها إلى نهايتها المنطقية تكون الحكاية التاريخية أدبا تخيليا من بين آداب تخيلية أخرى.

ولكن ما الذي يجعل بعض الحكايات أكثر قوة من غيرها بما يكفي لتمريرها كتاريخ مقبول إن لم يكن باعتبارها التاريخانية نفسها؟ إذا كان التاريخ مجرد قصة رواها من فازوا، فأولا كيف فازوا؟ ولماذا لا يدلي كل الفائزين بنفس القصة؟

بين الحقيقة والأدب التخيلي

تُجدِّد كل حكاية تاريخية دعوى الحقيقة[4]. إذا كنتُ أكتب قصة تصف كيف دخلت قوات الولايات المتحدة سجنا ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية وذَبَحت خمسمائة

غجري؛ وإذا ادعيتُ أن القصة مبنية على وثائق وُجدت حديثا في الأرشيف السوفييتي وتعززها مصادر ألمانية، وإذا كنتُ قد زيفتُ مثل هذه المصادر ونشرتُ قصتي بحالتها هذه، لن أكون قد كتبت أدبا خياليا، وإنما أكون قد زَيَّفتُ. لقد انتهكت القواعد التي تحكم الادعاء بالحقيقة التاريخية[5]. وكون أن مثل هذه القواعد ليست ثابتة في كل زمان ومكان قد أدت بباحثين عديدين إلى اقتراح أن بعض المجتمعات (هي المجتمعات غير الغربية، بالطبع) لا تُفَرِّق بين الخيال والتاريخ. هذا القول يُذَكِّرنا بجدالات الماضي بين بعض الملاحظين الغربيين عن لغات الشعوب التي استعمروها. فلأن هؤلاء الملاحظين لم يجدوا كُتُبا في قواعد اللغة أو قواميس عند من أسموهم الهمج، ولأنهم لم يفهموا أو يطبقوا القواعد النحوية التي حكمت هذه اللغات، استنتجوا ببساطة أن هذه القواعد غير موجودة.

لم يكن [هذا] الحقل [المعرفي: اللغة]، مثل غيره من الحقول، قائما من البداية على المساواة بين الغرب والعديد من الآخرين التابعين الذين خلقهم بنفسه. فالموضوعات التي جرت المقابلة بينها غير قابلة للمقارنة بشكل استثنائي. لقد وَضَعَت المقارنة بشكل غير عادل خطابا عن اللغة والممارسة اللغوية: أثبتت لغة النحويين المشتقة وجود قواعد لغوية في اللغات الأوربية؛ بينما أثبت الكلام التلقائي غيابها في أي مكان آخر. رأى بعض الأوربيين وتلاميذهم المستعمَرين في هذا الغياب المزعوم للقواعد حرية طفولية، أصبحوا يربطونها بالهمجية، بينما رأى آخرون فيها إثباتا إضافيا على انحطاط غير البيض. نحن نعرف الآن أن كلا الجانبين كانا على خطأ؛ فالقواعد تعمل في كل اللغات. هل يمكن قول نفس الأمر عن التاريخ؟ أو هل التاريخ مطواع بلا نهاية في بعض المجتمعات بحيث يفقد ادعاءه التفاضلي بالحقيقة؟

تصنيف جميع غير الغربيين كلا–تاريخيين مرتبط أيضا بادعاء أن التاريخ يتطلب إحساسا خطيا وتراكميا بالزمن يسمح للملاحِظ بعزل الماضي ككينونة واضحة المعالم. لكن ابن خلدون طبق بشكل مثمر رؤية دائرية للزمن على دراسة التاريخ. فوق ذلك يعود التزام المؤرخين الغربيين الحصري بزمن خطي، وما ينشأ عن ذلك من رفض الشعوب التي تُركت "بلا تاريخ"، إلى القرن التاسع عشر[6]، فهل كان للغرب تاريخ قبل عام 1800؟

الاعتقاد الخبيث بأن صلاحية المعرفة لا تهم سوى السكان الذين تعلموا تعليما غربيا، إما لأن الآخرين يفتقرون إلى الشعور السليم بالزمن أو بالدليل، ينكره استعمال الإثباتات

evidentials في عدد من اللغات غير الأوربية[7]. قد يصبح تقدير تقريبي إنجليزي قاعدةً تُجبر المؤرخين على التمييز من حيث القواعد النحوية بين "سمعت أن هذا قد حدث" و"رأيت أنه حدث" أو "لقد أتيت بدليل على أنه حدث" في كل مرة يستعملون فيها فعل "حَدَثَ". لكن بالطبع ليس في اللغة الإنجليزية قاعدة نحوية كهذه لتقييم الدليل. هل حقيقة أن التوكويا Tucuya لديها نظام متطور للإثباتات يجعل الأمازونيين المتحدثين بها أكثر استعدادا من معظم الإنجليز لأن يكونوا مؤرخين أفضل؟

يقرر آرجون أبادوراي Arjun Appadurai بشكل مقنع أن القواعد بشأن ما يسميه "إمكانية مساءلة debatability الماضي" تعمل في كل المجتمعات[8]. برغم أن هذه القواعد تتعرض لتغيرات جوهرية في الزمن والمكان، فإنها تهدف جميعا إلى ضمان حد أدنى من المصداقية للتاريخ. ويقترح عددا من القيود الشكلية التي تفرض هذه المصداقية وتحدد طبيعة الجدل التاريخي: السلطة والاستمرارية والعمق والاعتماد المتبادل. ما من مكان يكون فيه التاريخ معرضا للابتكار بشكل لا نهائي.

تنفصل الحكاية التاريخية عن الأدب التخيلي لأنها تحتاج إلى نوع مختلف من المصداقية. هذه الحاجة عرضية وضرورية معا. فهي عرضية بقدر ما أن بعض الحكايات تتحرك على الخط الواصل بين الرواية التخيلية والتاريخ، بينما تشغل حكايات أخرى موقعا غير محدد يبدو أنه ينكر ذات وجود هذا الخط. وهي حاجة ضرورية بقدر ما يكون على جماعات محددة تاريخيا أن تقرر عند لحظة معينة هل هذه الحكاية أو تلك تنتمي إلى التاريخ أم إلى الأدب التخيلي؟ بكلمات أخرى، يتم التعبير عن القطيعة الإبستمولوجية بين التاريخ والأدب التخيلي دائما بشكل عيني من خلال تقييم متموضع تاريخيا لحكايات بعينها.

هل أكل لحوم البشر في جزر الأنتيل Antilles واقعة أم خيال؟ لقد حاول الباحثون طويلا أن يؤكدوا أو يكذبوا ادعاء بعض المستوطنين الأسبان المبكرين أن سكان الجزر الأصليين ارتكبوا أكل لحوم البشر[9]. هل التداعي في المعنى بين [كلمات] الكاريبيين وآكلي لحوم البشر والبشر الحيوانيين Caribs, Cannibals, and Caliban مبني على ما يفوق مجرد خيالات أوربية؟ يرى بعض الباحثين أن هذه الفانتازيا قد وصلت أهميتها في الغرب إلى درجة جعلت أنه لا يكاد يهم ما إذا كانت مبنية على وقائع أم لا. هل يعني هذا أن الخط

الفاصل بين التاريخ والخيال بلا فائدة؟ بقدر ما يتناول الحوار كلاما أوربيا عن هنود [حُمر] موتى، يكون الكلام مجرد مناقشة أكاديمية.

لكن حتى الهنود [الحُمر] الموتى يمكن أن يعودوا ليطاردوا المؤرخين المحترفين والهواة. يؤكد المجلس القَبَلي المشترك للهنود [الحُمر] الأمريكيين أن رفات أكثر من ألف فرد، معظمهم من سكان أمريكا الأصليين الكاثوليك، قد دُفنت في أراضٍ مجاورة للآلامو، في مقبرة قديمة كانت مرتبطة يوما بالإرسالية الفرنسسكانية، لكن معظم بقاياها الظاهرة قد اختفت. لم تلق محاولات المجلس لجعل ولاية تكساس ومدينة سان أنطونيو يعترفان بقداسة هذه الأراضي إلا نجاحا جزئيا، لكنها ما زالت مؤثرة بما يكفي لتهديد سيطرة المنظمة التي تتولى الوصاية على الآلامو، وهي منظمة "بنات جمهورية تكساس"، التي تحتفظ بموضع تاريخي ائتمنتها عليه ولاية تكساس منذ عام 1905.

النقاش حول هذه الأراضي يندرج ضمن حرب أكبر أسماها بعض الملاحظين "معركة الآلامو الثانية". يدور هذا الجدل الأوسع عن حصار قوات سانتا آنا عام 1836 لمجمع المباني. هل كانت تلك المعركة لحظة مجد اختار خلالها الأنجلو المحبون للحرية –الذين لم يفل من عزمهم قلة عددهم بالنسبة لمحاصريهم– بشكل تلقائي أن يقاتلوا حتى الموت بدلا من الاستسلام لديكتاتور مكسيكي فاسد؟ أم هي مثل وحشي للنزعة التوسعية الأمريكية، قصة سيطرة قلة من المفترسين البيض على منطقة مقدسة وتقديمهم بموتهم، الذي لم يكن عن رغبة إلا جزئيا، عذرا لإلحاق [للمنطقة] تم التخطيط له جيدا؟ أثار النقاش المصاغ على هذا النحو قضايا انقسم حولها بضعة مؤرخين وسكان تكساس على مدى العشرين عاما الأخيرة. لكن مع تشكيل الهسبان Hispanics [:الأمريكيون المتحدثون بالأسبانية أو من أصل أسباني–م]، اسما، 56% من سكان سان أنطونيو، يعترف كثيرون منهم بأسلاف أمريكيين أصليين، وصلت "معركة الآلامو الثانية" إلى الشوارع حرفيا. تمثّل المظاهرات والمواكب وافتتاحيات الصحف والطلبات المقدمة لمختلف النُظم البَلَدية أو المحاكم – بما فيها مظاهرة تسد الآن الشوارع المؤدية إلى الآلامو – علامات على الجدل بين أحزاب يزداد غضبها.

في السياق الملتهب لهذا الجدل، يشكك المدافعون عن الجانبين في البيانات الواقعية factual التي لم تكن دقتها تعني سوى قلة قبل نصف قرن. كل معسكر يشكك في أو يهلل لـ"وقائع" تافهة أو بارزة، ويتناولها في حد ذاتها نسبيا.

لقد تساءل المؤرخون منذ زمن طويل عن دقة بعض الأحداث في حكايات آلامو، خصوصا قصة الخط المرسوم على الأرض. وفقا للقصة، حين اتضح للـ189 المحتلين لآلامو أن الخيار المتاح بالنسبة لهم هو إما الهرب أو الموت المؤكد على أيدي المكسيكيين، رسم قائدهم وليام بارِت ترافيز William Barret Travis خطا على الأرض، ثم طلب من الراغبين في القتال حتى الموتِ أن يعبروه. من المفترض أن الجميع عبروه – بالطبع عدا الرجل الذي هرب بشكل ملائم ليحكي القصة. منذ زمن طويل اتفق مؤرخو تاريخ تكساس، خصوصا مؤلفو المراجع والتاريخ الشعبي المنتمين لتكساس، على أن هذه الحكاية بالذات ليست سوى "قصة جيدة"، وأنه "لا يهم بالفعل ما إذا كانت حقيقية أم لا" (10). هذه الملاحظات التي سبقت صعود الموجة المنهجية البنائية الحالية، كتبها أناس اعتقدوا بخلاف هذه الموجة أن الحقائق حقائق وليست سوى حقائق. لكن في سياق أصبحت فيه شجاعة الرجال الذين بقوا في الآلامو محل تساؤل مفتوح أصبح الخط المرسوم على الأرض فجأة أحد "الوقائع" الكثيرة الخاضعة الآن لاختبار المصداقية.

قائمة الوقائع لا تنتهي(11). أين كانت المقبرة بالضبط، وهل ما زالت الرفات موجودة بها؟ هل السائحون الذين يزورون الآلامو ينتهكون الحقوق الدينية للموتى، وهل يجب على الولاية أن تتدخل؟ هل دفعت الولاية يومًا للكنيسة الكاثوليكية الرومانية السعر المتفق عليه لكنيسة الآلامو؟ وإن لم تكن قد دفعت، ألا يكون القائمون بالوصاية مغتصبين لأحد المعالم التاريخية؟ هل دَفَن جيمس بوي James Bowie، أحد القادة الأمريكان البيض، كنزا مسروقا في المكان؟ إذا كان الأمر كذلك، هل هذا هو السبب الحقيقي لاختيار المحتلين لخيار القتال؟ أو بالعكس، هل حاول بوي أن يتفاوض لكي ينقذ كلا من حياته وكنزه؟ باختصار إلى أي مدى كان الجشع، لا الوطنية، مركزيا في معركة الآلامو؟ هل اعتقد المحاصَرون خطأً أن التعزيزات قادمة في الطريق، وإذا كان الأمر كذلك، بأي قدر نستطيع أن نؤمن بشجاعتهم؟ هل مات دافي كروكيت Davy Crockett خلال المعركة أم بعدها؟ هل حاول أن يستسلم؟ وهل كان يرتدي حقا قبعة من جلد الراكون [:حيوان ثديي أمريكي مفترس من فصيلة القطط–م]؟

هذا السؤال الأخير قد يبدو الأكثر تفاهة في قائمة شديدة الغرابة؛ ولكنه سيبدو أقل عبثية وغرابة حين نلاحظ أن ضريح آلامو هو المكان الأكثر جذبا للسياحة في تكساس،

حيث يبلغ عدد الزائرين ثلاثة ملايين سنويا. والآن حين أصبحت الأصوات المحلية عالية بما يكفي للتشكيك في براءة هذا الجرينجو [:لفظ تحقير يطلقه سكان أمريكا اللاتينية على الأمريكان أو الإنجليز–م] الصغير الذي يرتدي قبعة دافي Davy [:قبعة على غرارها تباع للسائحين–م]، ربما يفكر ماما وبابا مرتين قبل أن يشتروا واحدة، ويرتعش الأوصياء على التاريخ من لحاق التاريخ بالحاضر بأسرع مما ينبغي. في سياق هذا الجدل أصبحت مسألة "كيف كان دافي الحقيقي" مهمة فجأة.

الدرس المستخلَص من هذا النقاش واضح. عند مرحلة معينة، ولأسباب هي ذاتها تاريخية، مدفوعة غالبا بالخلافات، تشعر الكيانات الجمعية collectivities بالحاجة لفرض اختبار مصداقية على أحداث وحكايات معينة لأنه يعنيهم تحديد ما إذا كانت صحيحة أم زائفة، أو هل هذه القصص واقع أم خيال.

كون أنها تعنيهم أمر لا يعني بالضرورة أنها تعنينا نحن. ولكن إلى أي حد نستطيع أن نمارس النزعة الانعزالية؟ هل حقا أنه لا يهم ما إذا كانت الحكاية السائدة عن المحرقة اليهودية (الهولوكوست) حقيقية أم زائفة؟ هل حقا لا يكاد يوجد فرق بين أن يكون قادة ألمانيا النازية قد خططوا وأشرفوا بالفعل على موت 6 مليون يهودي من عدمه؟

ظل زملاء معهد المجلة التاريخية Institute for Historical Review يؤكدون أن حكاية الهولوكوست مهمة، ولكنهم يؤكدون أيضا أنها زائفة. إنهم يتفقون بصفة عامة على أن اليهود تمت التضحية بهم خلال الحرب العالمية الثانية، وقد يقبل بعضهم أيضا بأن الهولوكوست كان تراجيديا. ولكن معظمهم يدافع عن تصحيح التدوين بشأن ثلاث قضايا رئيسية: العدد الشائع عن ستة ملايين يهودي قتلهم النازيون؛ الخطة النازية المنظمة لإبادة اليهود؛ وجود "غرف الغاز" للقتل الجماعي[12]. يدعي المراجعون أنه لا توجد أدلة غير قابلة للتفنيد تدعم أيا من هذه "الوقائع" المركزية التي تهيمن على حكاية الهولوكوست التي تفيد فقط في إدامة سياسات رسمية مختلفة في الولايات المتحدة وأوربا، وإسرائيل.

وقد فنَّد عدد من الكُتَّاب أطروحات المراجعين عن الهولوكوست. استعمل المؤرخ بيير فيدال– ناكيه Pierre Vidal–Naquet الذي ماتت أمه في [معتقل] أوشفيتز Auschwitz [النازي] دفوعه المتكررة أمام القضاء بشأن الأطروحات المراجعة ليطرح

أسئلة قوية عن العلاقة بين البحث الأكاديمي والمسئولية السياسية. ويوثّق جان–بيير بريساك Jean–Pierre Pressac، الذي كان هو نفسه من المراجعين، آلة الموت الألمانية أفضل من أي مؤرخ آخر. وتختبر ديبورا ليبشتات Deborah Lipstadt في كتابها الأخير عن الموضوع الدوافع السياسية للمراجعين لتدشن نقدا إيديولوجيا لنزعة المراجعة. ردا على هذا النوع الأخير من النقد يجيب المراجعون بأنهم مؤرخون: ماذا تهم دوافعهم إذا كانوا يتبعون "المناهج المعتادة للنقد التاريخي"؟ لا نستطيع أن ننبذ نظرية مركزية الشمس لمجرد أنه يبدو أن كوبرنيكوس كان يكره الكنيسة الكاثوليكية[13].

يقدم ادعاء المراجعين أنهم يتقيدون بالإجراءات الإمبريقية حالة مثالية لاختبار حدود النزعة البنائية التاريخية[14]. فالرهانات السياسية والأخلاقية المباشرة على حكايات الهولوكوست بالنسبة لعدد من الجماعات الانتخابية على مستوى العالم والقوة التنافسية لهذه الجماعات وعلو صوتها في الولايات المتحدة وأوربا تغري البنائيين سياسيا ونظريا معا. فالموقف البنائي المنطقي الوحيد بشأن مناقشة الهولوكوست هو إنكار أن النقاش مهم. فالبنائيون يجب أن يدَّعوا أنه لا يهم حقا ما إذا كانت هناك غرف غاز أم لا، ما إذا كان القتلى مليونا واحدا أم ستة ملايين، أو ما إذا كانت الإبادة العرقية مخططة أم لا. وبالفعل اقترب البنائي هايدن وايت Hayden White بشكل خطر من اقتراح أن الحكاية السائدة عن الهولوكوست تتعلق أساسا بالمساعدة في إضفاء الشرعية على سياسات دولة إسرائيل[15]. وقد حدَّ وايت لاحقا من موقفه البنائي المتطرف وأصبح يعتنق الآن نزعة نسبية أكثر تواضعا بكثير[16].

لكن إلى أي حد يمكن أن نختزل ما حدث إلى ما قيل إنه حدث؟ إذا لم يكن يهم فعلا رقم الستة ملايين هل يكفي مليونان، أو هل يرضى بعضنا بالاكتفاء بثلاثمائة ألف؟ إذا فُصل المعنى تماما عن الدال "هناك في الخارج"، إذا لم يكن هناك هدف معرفي، ولا شيء لإثباته أو نفيه، ما هو إذن موضوع القصة؟ إجابة وايت واضحة: إقامة السلطة الأخلاقية. ولكن لماذا نهتم بالهولوكوست أو عبودية العِزَب slavery plantation [في العالم الجديد] أو بول بوت [:قائد الخمير الحمر في كمبوديا الذين ارتكبوا مذابح وحشية–م] أو بالثورة الفرنسية، حين يكون لدينا بالفعل فتاة المعطف الأحمر ذو القلنسوة؟ [:حكاية شعبية أوربية عن فتاة بهذا الاسم واللباس يأكلها الذئب هي وجدتها بالخديعة ثم ينقذهما صياد. والمقصود: ما دام لدينا بالفعل قصة خيالية تثير نفس المشاعر–م].

معضلة البنائيين أنهم بينما يستطيعون أن يشيروا إلى مئات القصص التي تلقي الضوء على ادعائهم العام بأن الحكاية يتم إنتاجها، فإنهم لا يستطيعون أن يقدموا رواية كاملة عن إنتاج أية حكاية بعينها، لأنه إما أننا جميعا نشترك في نفس القصص التي تضفي الشرعية، وإما أن أسباب أهمية قصة معينة لسكان معينين هي نفسها تاريخية. القول بأن حكاية معينة تضفي الشرعية على سياسات بعينها يعني القول ضمنيا بإمكانية وجود إفادة "حقيقية" عن هذه السياسات عبر الزمن، وهي إفادة يمكن أن تأخذ هي نفسها شكل حكاية أخرى. لكن التسليم بإمكانية هذه الحكاية الأخرى يعني بدوره القبول بأن العملية التاريخية تتمتع ببعض الاستقلال في مواجهة الحكاية. إنه يعني التسليم بأن الحد الفاصل بين ما حدث وما قيل إنه حدث، على غموضه وعرضيته، ضروري.

ليست المسألة أن بعض المجتمعات تميز بين الخيال والتاريخ على خلاف غيرها من المجتمعات، وإنما يكمن الفارق في نطاق الحكايات التي يجب على كيانات جمعية معينة أن تُخضِعها لاختباراتها الخاصة بالمصداقية التاريخية بسبب المصالح الداخلة في هذه الحكايات.

التاريخانية أحادية الموضع

سنكون على خطأ إذا ظننا أن مثل هذه الأوضاع تتطور بشكل طبيعي عن أهمية حادث أصلي. فالتصور الشائع عن التاريخ كتذكِرة بخبرات الماضي المهمة مُضَلِّل. النموذج نفسه معروف جيدا: التاريخ للكائن الجماعي كالتذكر للفرد، إنه الاستعادة الواعية بدرجة أو بأخرى للخبرات الماضية المحفوظة في الذاكرة. فإذا وضعنا التنويعات الكثيرة جانبا نستطيع أن نسمي هذا النموذج باختصار النموذج المخزني للذاكرة/ التاريخ.

المشكلة الأولى في نموذج المخزن هي عمره، العلم العتيق الذي يستند إليه. يفترض النموذج رؤية عن المعرفة كتذكر، وهي رؤية ترجع إلى أفلاطون، ويتحداها الآن الفلاسفة وعلماء المعرفة. فوق ذلك، فكرة ذاكرة الفرد التي استُقيت منها أصبحت محل تساؤل قوي من جانب باحثين من مختلف الأنواع منذ نهاية القرن التاسع عشر على الأقل. الذاكرة داخل هذه الرؤية تمثيلات مفردة محفوظة في حجرة خاصة، محتوياتها بصفة عامة دقيقة ويمكن

الوصول إليها حسب المشيئة. جعلت البحوث الحديثة كل هذه الافتراضات محل تساؤل. ليس التذكر دائما عملية استدعاء لتمثيلات عما حدث. يتضمن ربط رباط الحذاء ذاكرة [:خبرة سابقة عن كيفية ربطه–م]، لكن قليلون منا يدخلون في استدعاء صريح لصور في كل مرة نربط فيها أحذيتنا بشكل روتيني. سواء كان التمييز بين الذاكرة الصريحة والضمنية يتضمن نُظُم ذاكرة مختلفة أم لا فإن واقع أن مثل هذه الأنظمة مرتبطة ارتباطا لا فكاك منه في الممارسة يمكن أن يكون سببا إضافيا يفسر لماذا تتغير الذاكرة الصريحة. أيا كان الأمر هناك دليل على أن محتويات حجرتنا هذه لا هي ثابتة ولا متاحة حسب المشيئة(17).

فوق ذلك، إذا كانت هذه المحتويات كاملة فإنها لا تشكل تاريخا. لنأخذ مونولوجا يصف بالترتيب كل ذكريات فرد ما. سوف يبدو كنغمات متنافرة حتى بالنسبة لمن يحكي. وأكثر من ذلك هناك على الأقل إمكانية وجود أحداث لم يعرفها الفرد وقت حدوثها يمكن أن تكون قد لعبت دورا مهما في مسار حياته، ولكن لا يمكن حكايتها كخبرات يتم تذكرها. الفرد يستطيع فقط أن يتذكر ما يتكشف له revelation، لا الحدث نفسه. فربما أتذكر أنني قد ذهبت إلى اليابان بغير أن أتذكر الشعور بالوجود في اليابان. ربما أتذكر أنه قيل لي إن والديّ قد أخذوني إلى اليابان حين كان عمري ستة شهور. لكن في هذه الحالة، هل ما تكشف لي هو وحده الذي ينتمي إلى تاريخ حياتي؟ هل نستطيع بكل ثقة أن نستبعد من تاريخ المرء كل الأحداث التي لم يمر بخبرتها أو لم تتكشف له بعد، بما فيها مثلا تبنيه عند ميلاده؟ ربما يوفر التبني منظورا حاسما لسلاسل أحداث وقعت قبل تكشفه. والتكشُّف نفسه قد يؤثر على ذاكرة الحَكّاء الشخصية للحوادث التي وقعت قبله.

إذا كانت الذكريات كتاريخ للفرد مبنية [:تمر بعملية بناء وليست بالتالى انعكاسا مباشرا للواقع–م]، ولو بهذا المعنى المحدود، كيف يمكن تثبيت الماضي الذي يستعيده الأفراد؟ لا يملك نموذج التخزين إجابة على هذا السؤال. فالطبعتين الشعبية والأكاديمية لهذا النموذج، كلاهما يفترض الوجود المستقل لماض ثابت ويضعان الذاكرة كاستعادة لهذا المحتوى. لكن الماضي لا يوجد مستقلا عن الحاضر. بالفعل، الماضي لا يكون ماضيا إلا لأن هناك حاضر، تماما مثلما لا أستطيع أن أشير إلى شيء على أنه هناك إلا لأنني هنا. لكن ليس هناك شيء هو بطبيعته هناك أو هنا. بهذا المعنى ليس للماضي محتوى. الماضي – أو بشكل أدق الماضيّة pastness [:ماضية حدث أو حقبة ما–م] – هي وضع. وبالتالي ليست هناك طريقة يمكن

بها أن نحدد الماضي كماض. دعنا الآن من واقعة أن معرفتي بأنني قد ذهبت ذات مرة إلى اليابان، أيا كان مصدر معرفتي، ربما لا تكون من نفس طبيعة تذكر الشعور بالوجود في اليابان، فالنموذج يَدَّعي أن كلا النوعين من المعلومات يوجد كماض سابق على استعادتي لأي منهما. لكن كيف أستعيدهما كماضٍ بغير معرفة أو ذاكرة سابقةً بما يشكل الماضيّة؟

تتضاعف مشكلات تحديد ما ينتمي إلى الماضي عشرة أضعاف حين يقال عن هذا الماضي أنه جماعي. بالفعل، حين تُنقل معادلة الذاكرة– التاريخ إلى كيان جمعي، تضيف النزعة الفردية المنهجية ثقلها إلى الصعوبات المتأصلة في نموذج التخزين. ربما نحب أن نفترض لأغراض الوصف أن تاريخ حياة الفرد تبدأ بمولده. لكن متى تبدأ حياة الكيان الجمعي؟ في أية لحظة نضع بداية الماضي الذي يُراد استعادته؟ كيف نقرر – وكيف يقرر الكيان الجمعي – الأحداث التي يجب إدراجها والتي يجب استبعادها؟ فنموذج التخزين لا يفترض فقط الماضي الذي يجب تذكره، بل يفترض أيضا الذات الجمعية التي تقوم بالتذكر. المشكلة في هذا الافتراض المزدوج هي أن الماضي المبني نفسه داخل في تكوين الكيان الجمعي.

هل يتذكر الأوربيون والأمريكيون البيض اكتشاف العالم الجديد؟ لا أوربا كما نعرفها الآن ولا البياض whiteness كما نعرفه الآن قد وُجدا بحالتهما هذه عام 1492. كلاهما داخلان في تكوين هذه الكينونة المستعادة التي نسميها الآن الغرب، والتي بغيرها يصبح "الاكتشاف" غير قابل للتفكير فيه بشكله الحالي. هل يستطيع مواطنو كيبك Quebec الذين تقرر لوحات أرقام سياراتهم بفخر "إنني أتذكر"، أن يستعيدوا بالفعل ذكريات من دولة الاستيطان الفرنسية؟ هل يستطيع المقدونيون، أيا كان هؤلاء، أن يستدعوا الصراعات والآمال المتصلة بالنزعة الهيلينية الجامعة panhellenism؟ هل يستطيع أي إنسان في أي مكان أن يتذكر التحولات الجماعية الأولى للصرب إلى المسيحية؟ في هذه الحالات، وغيرها كثير، لم تكن الذوات الجمعية التي يُفترض أن تتذكر موجودة بهذه الحالة في زمن الأحداث التي تَدَّعي أنها تتذكرها. بالأحرى يكون تَكَوُّنها كذوات مصاحبا دائما لخلقها المستمر للماضي. وبوصفها كذلك فإنها لا تتجاوز مثل هذا الماضي: إنها معاصِرة له.

وحتى حين تكون الاستمراريات التاريخية غير قابلة للمساءلة فإننا لا نستطيع بأية حال أن نفترض معامل ارتباط بسيط بين شدة الأحداث كما حدثت وقيمتها بالنسبة للأجيال التي ترثها من خلال التاريخ. توفر الدراسة المقارنة للعبودية في الأمريكتين مثالا جذابا على أن ما

نسميه غالبا "ميراث الماضي" قد لا يكون شيئا ورَّثه هذا الماضي نفسه.

للوهلة الأولى يبدو واضحا أن أهمية العبودية في الولايات المتحدة تأتي من فظائع الماضي. فتجري إثارة ذلك الماضي باستمرار كنقطة انطلاق لجرح متنام وكتفسير ضروري لأشكال عدم المساواة الجارية التي يعاني منها السود. إنني آخر من ينكر أن عبودية العزَب كانت خبرة أحدثت جروحا تركت ندوبا قوية في كل أنحاء الأمريكتين. لكن خبرة الأمريكيين الأفارقة خارج الولايات المتحدة تتحدى الربط المباشر بين جروح الماضي والأهمية التاريخية.

في سياق نصف الكرة [الغربي–م] استوردت الولايات المتحدة "عددا قليلا نسبيا من الأفارقة المستعبدين قبل وبعد الاستقلال. خلال أربعة قرون جلبت تجارة العبيد ما لا يقل عن عشرة ملايين عبد إلى العالم الجديد. وقد عمل العبيد وماتوا في الكاريبي لمدة قرن قبل استيطان جيمستاون Jamestown وفرجينيا. وقد استقبلت البرازيل، وهي المنطقة التي استمرت فيها العبودية أطول وقت، نصيب الأسد من العبيد الأفارقة، حوالي أربعة ملايين. واستوردت منطقة الكاريبي ككل عبيدا أكثر حتى من البرازيل، انتشروا بين مستعمرات مختلف القوى الأوربية. ومع ذلك كانت واردات العبيد عالية في كل منطقة من الكاريبي، خصوصا جُزُر [زراعة قصب] السكر. وبالتالي استوردت جزيرة المارتنيك Martinique الكاريبية الفرنسية، وهي أرض صغيرة المساحة أقل من ربع مساحة لونج أيلاند Long Island، عبيدا أكثر من كل الولايات المكوِّنة للولايات المتحدة مجتمعة[18]. لا شك أن الولايات المتحدة في بدايات القرن التاسع عشر كان لديها عبيدا كريوليين Creole [: مخلطين من البيض والسود في الأمريكتين–م] أكثر من أي بلد أمريكي آخر، لكن هذا العدد كان بسبب التزايد الطبيعي. برغم هذا ما زلنا لا نستطيع أن نقول إن شدة العبودية في الولايات المتحدة من حيث المدة أو عدد الأفراد الذين شملتهم تفوق مثيلتها في البرازيل أو الكاريبي.

ثانيا، كانت العبودية لا تقل أهميتها في الحياة اليومية للمجتمع البرازيلي والمجتمعات الكاريبية وقد تزيد بالمقارنة بمجتمع الولايات المتحدة ككل. بصفة خاصة لم تكن جُزُر السكر البريطانية والفرنسية، من باربادوس وجامايكا القرن السابع عشر إلى سان دومينيج Saint–Domingue والمارتنيك في القرن الثامن عشر مجرد مجتمعات لديها عبيد، بل كانت مجتمعات عبيد. فالعبودية حددت تنظيمها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي: كانت العبودية منطق وجودها. والناس الذين عاشوا هناك، سواء كانوا أو لم يكونوا عبيدا، عاشوا

لأنه كان هناك عبيد. قد يكون المعادل الشمالي في كل الولايات المتحدة القارية يشبه ولاية آلاباما وقت ذروة ازدهار [زراعة] القطن فيها.

ثالثا، لا حاجة إلى القول بأن المعاناة البشرية قابلة للقياس لنؤكد أن ظروف العبيد المادية لم تكن أفضل خارج الولايات المتحدة عن ظروفهم داخل حدودها. وبرغم الادعاءات الأبوية فإننا نعرف أن سادة الولايات المتحدة لم يكونوا أكثر إنسانية من أمثالهم البرازيليين أو الكاريبيين. لكننا نعرف أيضا أن الضريبة الإنسانية للعبودية، الجسدية والثقافية، كانت مرتبطة بشدة بمقتضيات الإنتاج، خصوصا نظام العمل. وقد فرضت ظروف العمل بصفة عامة توقعا أقل للعُمر المتوسط ومعدلات وفيات أعلى ومعدلات مواليد أقل كثيرا بين العبيد الكاريبيين والبرازيليين بالمقارنة بزملائهم في الولايات المتحدة [19]. من وجهة النظر هذه كان قصب السكر معذِّب العبيد الأكثر سادية.

باختصار هناك كتلة من الأدلة كبيرة بما يكفي لتدعيم ادعاء إمبيريقي متواضع: لا يمكن أن يقال بأي حال أن أثر العبودية من حيث ما حدث بالفعل أقوى في الولايات المتحدة من أثرها في البرازيل والكاريبي. لماذا إذن كانت الأهمية الرمزية للعبودية كجرح وكذلك الأهمية التحليلية للعبودية كتفسير اجتماعي تاريخي أكثر انتشارا بكثير جدا اليوم في الولايات المتحدة مما هي في البرازيل أو الكاريبي؟

ربما يكمن جزء من الإجابة في الطريقة التي انتهت بها العبودية في الولايات المتحدة: حرب أهلية يبدو أن عدد البيض الذين لاموا العبيد عليها أكبر من عدد من لاموا أبراهام لنكولن Abraham Lincoln – الذي تظل دوافعه الخاصة في المشروع على العكس محل خلاف. وربما يكمن جزء آخر من الإجابة في مصير ذرية العبيد، ولكن هذا في حد ذاته ليس قضية من قضايا "الماضي". فدوام العنصرية في الولايات المتحدة ليس ميراثا للعبودية بقدر ما هو ظاهرة حديثة جددتها أجيال من المهاجرين البيض الذين كان أسلافهم على الأرجح يخضعون للعمل الإجباري في وقت أو آخر في أراضي القارة الأوربية.

وبالفعل، لم يؤمن كل السود الذين شهدوا العبودية بأنها ميراث يجب عليهم وعلى أطفالهم أن يحملوا عبأه إلى الأبد [20]. كذلك لم تكن العبودية بعد التحرير بنصف قرن تيمة أساسية عند المؤرخين البيض، وإن كان ذلك لأسباب أخرى. فالكتابة التاريخية في

الولايات المتحدة أنتجت لحظات صمتها الخاصة بشأن عبودية الأمريكان الأفارقة، لأسباب ربما لا تختلف كثيرا عن أسباب زملائهم البرازيليين. في وقت أسبق من القرن الحالي [:القرن العشرين] كان هناك سود وبيض في أمريكا الشمالية تناقشوا بشأن كل من الأهمية الرمزية والتحليلية للعبودية بالنسبة للحاضر الذي كانوا يعيشون فيه[21]. توحي هذه المناقشات بأن الأهمية التاريخية لا تأتي مباشرة من الأثر الأصلي لحدث، أو من نمط نقشه inscription، أو حتى استمرارية هذا النقش.

الجدل بشأن الآلامو أو الهولوكوست أو دلالة العبودية في الولايات المتحدة لا يشمل فقط المؤرخين المحترفين ولكن أيضا قادة عرقيين ودينيين وساسة وصحفيين وجمعيات متنوعة في المجتمع المدني، بالإضافة إلى مواطنين مستقلين ليسوا جميعا من النشطاء. هذا التنوع في الرواة هو أحد المؤشرات الكثيرة على أن نظريات التاريخ لديها رؤية محدودة للغاية لحقل الإنتاج التاريخي. فهي تستخف بشكل هائل بحجم وأهمية وتعقيد المواضع المتداخلة التي يتم إنتاج التاريخ فيها، خصوصا خارج العالم الأكاديمي[22].

تختلف قوة حرفة التاريخ من مجتمع لآخر. وحتى في المجتمعات عالية التعقيد حيث يكون ثقل الحرفة ملحوظا لم يشكل إنتاج المؤرخين جسما مغلقا. بالأحرى يتفاعل هذا الإنتاج مع أعمال الأكاديميين الآخرين، لكنه يتفاعل أيضا تفاعلا مهما مع التاريخ الذي يتم إنتاجه خارج الجامعات. وبالتالي لا يتم تنشيط الوعي الموضوعاتي thematic بالتاريخ فقط عن طريق الأكاديميين المعترف بهم. فنحن جميعا مؤرخون هواة بدرجات مختلفة من الوعي بإنتاجنا. ونحن أيضا نتعلم التاريخ من هواة مثلنا. فالجامعات والمطبوعات الجامعية ليست هي المركز الوحيد لإنتاج الحكاية التاريخية. فمبيعات الكتب في متجر الهدايا في الآلامو تفوق حتى مبيعات قبعات جلد الراكون، منها نصف دستة عناوين بأقلام مؤرخين هواة تجلب أكثر من 400 ألف دولار سنويا. فكما يرى مارك فيرو Marc Ferro، التاريخ له بيوت كثيرة وليس الأكاديميون معلمي التاريخ الوحيدين في الأرض[23].

يتعلم معظم الأوربيين والأمريكيين الشماليين دروس التاريخ الأولى من وسائل الإعلام التي لا تخضع للمعايير التي وضعتها المجلات العلمية أو المنشورات الجامعية أو لجان مناقشة رسائل الدكتوراه. فقبل زمن طويل من قراءة المواطن المتوسط لأعمال المؤرخين الذين يضعون معايير اليوم للزملاء والطلبة، يتصلون بالتاريخ من خلال الاحتفالات وزيارة المعالم التاريخية

والمتاحف والأفلام والأعياد الوطنية وكتب المدرسة الابتدائية. ولا شك أن ما يتعلمونه هناك يدعمه أو يحوره أو يتحداه الباحثون العاملون في البحوث الأولية. وكلما واصل التاريخ تماسكه مهنيا، وكلما زادت سرعة المؤرخين في تحوير أهدافهم وصقل أدوات تحقيقهم التاريخي كلما زاد تأثير التاريخ الأكاديمي، ولو بطريقة غير مباشرة.

لكن دعونا لا ننسى مدى هشاشة ومحدودية وحداثة هذه الهيمنة الظاهرة. دعونا لا ننسى أنه إلى وقت قريب تماما، وفي أجزاء كثيرة من الولايات المتحدة، كان التاريخ الوطني وتاريخ العالم عبارة عن حكاية تدور حول العناية الإلهية لها ملمح ديني قوي. فكان تاريخ العالم يبدأ بالخلق، المفترض أن تاريخه معروف جيدا، ويواصل عبر "القدر الواضح" Manifest Destiny [:فكرة قَدَر الولايات المتحدة أن تتوسع لخير العالم، سواء في القارة نفسها أو في العالم ككل لاحقا–م]، باعتباره متفقا تماما مع بلد كان محط اهتمام العناية الإلهية. ولم ينبذ العلم الاجتماعي الأمريكي حتى الآن الإيمان باستثنائية الولايات المتحدة التي تخللت ميلادها وتطورها[24]. بالمثل لم تُسكت الاحترافية الأكاديمية بُعدَ التاريخ القائم على فكرة الخلق، والذي ما زال حيا في جُزُر داخل نظام المدارس.

ربما لا يكون لنظام المدرسة الكلمة الأخيرة في أية قضية، لكن محدودية كفاءتها سلاح ذو حدين. من منتصف الخمسينيات إلى منتصف الستينيات تَعَلَّم الأمريكيون من الأفلام والتليفزيون عن تاريخ أمريكا الاستعمارية والغرب الأمريكي أكثر مما تعلموه من الكتب المدرسية. هل تتذكر الآلامو؟ كان هذا درس في التاريخ قدمه جون وين John Wayne [بطل أفلام رعاة بقر أمريكية عديدة–م] على الشاشة. وكان دافي كروكيت Davy Crockett شخصية تليفزيونية أولا، ثم أصبحت وجها تاريخيا مهما، لا العكس[25]. وقبل التزام هوليود الطويل بتاريخ رعاة البقر والرواد، وبعده، تولت كتب الكومكس [الرسوم المتتالية–م] لا المراجع، والأغاني الريفية لا الجداول الزمنية، سد الفجوات التي تركتها أفلام رعاة البقر westerns. وحينئذ، كما هو الحال الآن، تعلم الأطفال الأمريكيون وعدد قليل للغاية من الشباب في أماكن أخرى تلخيص أجزاء من ذلك التاريخ في تيمة، عن طريق لعبة الكاوبوي والهنود [الحُمر].

وأخيرا، من المفهوم أن الطائفة الحرفية [:المؤرخين المحترفين] تعكس التقسيمات السياسية والاجتماعية في المجتمع الأمريكي. ومع ذلك لا تستطيع الطائفة الحرفية، بفعل ادعاءاتها

الاحترافية، أن تعبر عن وجهات نظرها السياسية بصفتها هذه - على العكس تماما من النشطاء واللوبيهات. لذلك، ويا للعجب، كلما كانت قضية ما أكثر أهمية لقطاعات معينة من المجتمع المدني، كلما تم سحق تفسيرات الوقائع التي يقدمها معظم المؤرخين المحترفين. بالنسبة لمعظم الأفراد المشاركين في الجدالات حول الاحتفال بخمسمائة سنة على رحلة كولومبوس، أو معرض "الحقيقة الأخيرة" في [معهد] سميثونيان Smithsonian [:معهد في واشنطن أقامه الكونجرس وتتبعه الآن المتاحف القومية—م] عن إينولا جاي Enola Gay [اسم الطائرة التي ألقت القنبلة الذرية—م] وهيروشيما، أو الكشف عن جبانات العبيد، أو بناء نُصُب فيتنام التذكاري، تبدو العبارات التي ينتجها المؤرخون في الغالب ماسخة أو غير متصلة بالموضوع. في هذه الحالات وحالات أخرى كثيرة يبحث هؤلاء الذين يعني لهم التاريخ الكثير عن تفسيرات تاريخية على حواف العالم الأكاديمي، إن لم تكن خارجه كلية.

برغم ذلك، تجاهلت نظريات التاريخ الحقيقة القائلة بأن التاريخ يتم إنتاجه أيضا خارج العالم الأكاديمي. خلف اتفاق عريض - وحديث نسبيا - على موضع المؤرخ المحترف، يندر الاستكشاف العيني لنشاطات تحدث في مكان آخر ولكنها تؤثر بشكل دال على موضوع الدراسة [التاريخية—م]. لا شك أن مثل هذا التأثير لا يستجيب بسهولة للصيغ العامة، وهي مشكلة تُنَفِّر معظم المُنَظِّرين. لقد لاحظتُ أنه بينما يعترف معظم المنظِّرين في البداية بأن التاريخ يتضمن كلا من العملية الاجتماعية وما يُحكى عن هذه العملية، تفضل نظريات التاريخ واقعيا جانبا واحدا، كما لو كان الجانب الآخر غير مهم.

واحدية الجانب هذه ممكنة لأن نظريات التاريخ نادرا ما تدرس بالتفصيل الإنتاج العيني لحكايات معينة. أحيانا يجري استحضار الحكايات كأمثلة توضيحية، أو في أفضل الأحوال كشف القناع عنها بتوضيح أنها نصوص، ولكن نادرا ما تشكل عمليات إنتاجها موضوعا للدراسة[26]. بالمثل سيُسَلِّم معظم الباحثين بأن الإنتاج التاريخي يحدث في مواضع كثيرة. لكن الوزن النسبي لهذه المواضع يتنوع وفقا للسياق، وتفرض هذه التنوعات على المُنَظِّر عبءَ العيني. وهكذا يمكن أن تقدم دراسة القصور الفرنسية كأماكن للإنتاج التاريخي دروسا توضيحية لفهم دور هوليود في الوعي التاريخي في الولايات المتحدة، لكن لا توجد نظرية مجردة يمكنها أن تضع بشكل مُسبق القواعد التي تحكم التأثير النسبي للقلاع الفرنسية والأفلام الأمريكية على التاريخ الأكاديمي الذي يتم إنتاجه في هذين البلدين.

كلما زاد عبء العيني ثقلا، كلما زادت احتمالية أن تتجاهله النظرية. وبالتالي تتوالى أفضل معالجات التاريخ الأكاديمي كما لو أن ما حدث في مواضع أخرى كان إلى حد كبير بلا أهمية تُذكر. ومع ذلك هل حقا يمكن اعتبار حقيقة أن تاريخ أمريكا يُكتب في نفس العالم الذي لا يريد فيه سوى قلة من الأولاد الصغار أن يكونوا هنودا [حُمرا] غير مهمة؟

تنظير الغموض وتتبع القوة power

غالبا ما يتم إنتاج التاريخ في سياق تاريخي محدد. والفاعلون التاريخيون هم أيضا حكاءون، والعكس بالعكس.

الجزم بأن الحكايات يتم إنتاجها دائما في التاريخ يقودني إلى اقتراح اختيارين. أولهما، أن أية نظرية عن الحكاية التاريخية يجب أن تعترف بكل من التمييز والتداخل بين العملية [التاريخية الاجتماعية–م] والحكاية. وبالتالي برغم أن هذا الكتاب [الذي نقرأ هنا ترجمة الفصل الأول منه–م] هو بالدرجة الأولى عن التاريخ كمعرفة وحكاية[27]، فإنه يتبنى بالكامل الغموض المتأصل في جانبيّ التاريخانية.

يشمل التاريخ كعملية اجتماعية أناسا لهم ثلاث قدرات متمايزة: (1) كفاعلين أو شاغلين لمواقع في بنية؛ (2) كفاعلين في حالة تَدَخُّل دائم في السياق؛ (3) كذوات، أي كأصوات واعية بصوتيتها. من الأمثلة الكلاسيكية لما أسميه فاعلين الشرائح والمجموعات التي ينتمي إليها الناس، مثل الطبقة والمكانة، أو الأدوار المرتبطة بها. فالعمال والعبيد والأمهات هم فاعلون[28]. ويستطيع تحليل العبودية أن يستكشف البنى الاجتماعية الثقافية والسياسية والاقتصادية والإيديولوجية التي تُعَرِّف مواقع مثل العبيد والسادة.

وأقصد بالفاعلين حزمة القدرات المحددة في الزمان والمكان بحيث يعتمد كل من وجودهم وفهمهم [كفاعلين–م] بشكل جوهري على الخصوصيات التاريخية. فأية مقارنة تاريخية بين عبودية الأفارقة الأمريكان في البرازيل وفي الولايات المتحدة، تتجاوز مجرد تقديم جدول إحصائي، يجب أن تتناول الخصوصيات التاريخية التي تحدد الأوضاع محل المقارنة وحكايات تاريخية تخاطب أوضاعا خاصة. وبهذا المعنى لا بد أن تتعامل مع الكائنات البشرية كفاعلين[29].

لكن الناس أيضا ذوات للتاريخ بنفس الطريقة التي يكون بها العمال فاعلو إضراب: إنهم يحددون الشروط ذاتها التي يمكن في إطارها وصف بعض الأوضاع. لننظر في إضراب كحدث تاريخي من وجهة نظر حكائية بحتة، أي بغير التدخلات التي نضعها عادة تحت عناوين من قبيل تأويل أو تفسير. لا توجد طريقة لوصف إضراب بغير جعل القدرات الذاتية للعمال جزءا مركزيا من الوصف[30]. من المؤكد أن مجرد تقرير غيابهم عن محل العمل لا يكفي. سنحتاج إلى تقرير أنهم وصلوا بشكل جماعي لقرار البقاء في المنزل في يوم يُفْتَرَض أنه يوم عمل. ويجب أن نضيف أنهم عملوا بشكل جماعي للتوصل إلى هذا القرار. لكن حتى مثل هذا الوصف، الذي يأخذ في الاعتبار وضع العمال كفاعلين، ليس وصفا وافيا لإضراب. فهناك بالفعل سياقات قليلة أخرى يمكن فيها أن يقدم مثل هذا الوصف شيئا آخر. فيمكن أن يكون العمال قد قرروا أنه إذا تجاوز سقوط الثلج عشرة بوصات الليلة لن يذهب أحدٌ منّا إلى العمل غدا. وإذا قبلنا سيناريوهات التلاعب أو أخطاء التفسير بين الفاعلين ستصبح الاحتمالات بلا حدود. وبالتالي تتطلب [كتابة–م] حكاية وافية عن إضراب تجاوز التعامل مع العمال كفاعلين لتدعي الوصول إلى العمال كذوات هادفة واعية بأصواتها الخاصة. إنها تحتاج إلى أصواتهم كمتكلمين، أو على الأقل تتجه إلى الاقتباس منهم. يجب على الحكاية أن تعطينا تلميحا لكل من أسباب رفض العمل والهدف الذي يعتقدون أنهم يسعون إليه – حتى لو كان هذا الهدف مقتصرا على إعلان الاحتجاج. لنضع ذلك على أبسط نحو: الإضراب لا يكون إضرابا إلا إذا كان العمال يعتقدون أنهم يقومون بإضراب. فالذاتية جزء لا يتجزأ من الحدث ومن أي وصف مُرْضٍ لهذا الحدث.

العمال يجب أن يعملوا أكثر مما يُضربوا. لكن القدرة على الإضراب لا يمكن أبدا فصلها بالكامل عن أوضاع العمال. بكلمات أخرى ليس الناس دائما ذوات يواجهون التاريخ بشكل مستمر كما قد يرغب بعض الأكاديميين، وإنما تكون القدرة التي بناء عليها يفعلون ليصبحوا ذواتا هي دائما جزء من وضعهم. تؤكد هذه القدرة الذاتية الغموض، لأنها تجعل الكائنات البشرية تاريخية بشكل مضاعف، أو بالأصح تاريخية بالكامل. وهي تجعلهم يشتبكون في نفس الوقت في عملية اجتماعية تاريخية وفي أبنية حكائية عن هذه العملية. والاختيار الأول لهذا الكتاب [:كتاب ترويو–م] هو اعتناق هذا الغموض المتأصل فيما أسميه جانبيّ التاريخانية.

الاختيار الآخر هو التركيز العيني على عملية الإنتاج التاريخي لا الاهتمام المجرد بطبيعة التاريخ. لقد قادنا البحث عن طبيعة التاريخ إلى إنكار الغموض وإلى اختيار بين أن نضع بدقة وفي كل الحالات الخط الفاصل بين العملية التاريخية والمعرفة التاريخية وإما أن نمزج في كل الحالات بين العملية التاريخية والحكاية التاريخية. وبالتالي هناك بين قطبي "الواقعية" الميكانيكية و"البنيوية" الساذجة مهمة أكثر جدية، ليست هي تحديد ما هو التاريخ – وهو هدف لا أمل فيه إذا صيغ بمصطلحات جوهرانية – ولكن كيف يعمل التاريخ. ذلك أن ما يكون عليه التاريخ يتغير مع الزمن والمكان، أو بعبارة أفضل، يكشف التاريخ نفسه من خلال إنتاج حكايات بعينها. أما الأمر المهم إلى أقصى حد فهو عملية وظروف إنتاج مثل هذه الحكايات. التركيز على تلك العملية هو وحده الذي يستطيع أن يكشف الطرق التي يتشابك بها جانبا التاريخانية في سياق معين. فقط من خلال هذا التطابق يمكن أن نكتشف الممارسة التفاضلية للقوة power التي تجعل بعض الحكايات ممكنة وتُسكِت حكايات أخرى.

يتطلب تتبع القوة رؤية للإنتاج التاريخي أغنى مما يَعترِف به معظم المُنَظِّرين. لا نستطيع أن نستبعد مقدما أيا من الفاعلين الذين يشاركون في إنتاج التاريخ أو أيا من المواضع التي قد يحدث فيها هذا الإنتاج. إلى جانب المؤرخين المحترفين نكتشف صُنّاعا من أنواع مختلفة، هم عاملون في الحقل [: حقل إنتاج الحكايات التاريخية–م] بلا أجر أو غير معترف بهم، من سياسيين ودارسين وكُتّاب قصص وصانعي أفلام وأعضاء مشاركين من الجمهور، يضخمون أو يُحَرِّفون أو يُقرون عمل المحترفين. بذلك نكسب رؤية أكثر تعقيدا للتاريخ الأكاديمي نفسه، نظرا لأننا لا نرى أن المؤرخين ينفردون بإنتاجه.

توسع هذه الرؤية الأكثر شمولا الحدود الزمنية لعملية الإنتاج. نستطيع أن نرى أن هذه العملية تبدأ مبكرا وتستمر إلى زمن متأخر عما يسلم به معظم المنَظِّرين. فالعملية لا تتوقف مع الجملة الأخيرة لمؤرخ محترف نظرا لأنه من المرجح تماما أن يشارك الجمهور في التاريخ ولو بمجرد إضافة قراءته الخاصة للإنتاج البحثي وعنه. وربما كان الأهم أنه نظرا لأن التداخل بين التاريخ كعملية اجتماعية والتاريخ كمعرفة تداخُل سائل fluid : قد يَدخُل مشاركون في أي حدث في إنتاج حكاية عن ذلك الحدث قبل أن يصل المؤرخ بوصفه كذلك إلى المشهد. في الواقع قد تسبق الحكاية التاريخية التي يشغل فيها الحدث الواقعي مكانه وقوع الحدث نفسه، على الأقل نظريا، ولكن ربما في الممارسة أيضا. يرى مارشال صالينز

Marshall Sahlins أن أهل هاواي يقرأون مواجهتهم مع كابتن كوك Captain Cook [:مستكشف إنجليزي "اكتشف" استراليا، وقاد حملات لاكتشاف وضم مناطق في المحيط الهادي، آخرها إلى هاواي، حيث قُتل هناك في اشتباك مع أهلها عام 1779—م] كتاريخ لموت معروف مسبقا. ولكن مثل هذه الممارسات ليست محصورة في الشعوب التي بلا تاريخ. إلى أي حد تلائم حكايات نهاية الحرب الباردة التاريخ المُعَلَّب مسبقا عن الرأسمالية في دروع الفرسان [:المقاتلة—م]؟ يرى وليام لويس William Lewis أن أحد نقاط قوة رونالد ريجان السياسية قدرته على حفر مدة رئاسته داخل حكاية معلبة مسبقا عن الولايات المتحدة. وتوحي الخطوط العامة للإنتاج التاريخي العالمي عبر الزمن بأن المؤرخين المحترفين لا يضعون وحدهم إطار الحكاية التي تشغل فيها قصصهم موقعا. في معظم الأحيان كان شخص آخر قد دخل المشهد بالفعل ووضع دائرة لحظات الصمت(31).

هل هذه الرؤية الموسعة ما زالت تسمح بتعميمات صالحة عن إنتاج الحكاية التاريخية؟ الإجابة عن هذا السؤال هي بالتأكيد نعم، إذا كنا نوافق على أن مثل هذه التعميمات تعزز فهمنا لممارسات معينة، ولكنها لا توفر مخططات يُفترض أن الممارسة سوف تسير وفقا لها أو تقدم أمثلة عليها.

تدخل لحظات الصمت عملية انتاج التاريخ عند أربع نقط حاسمة: لحظة خلق الحقيقة الواقعة fact creation (صناعة المصادر)؛ لحظة تجميع الحقيقة الواقعة fact assembly (صنع الأرشيفات)؛ لحظة استعادة الحقيقة الواقعة fact retrieval (صنع الحكايات)؛ ولحظة الدلالة المُستعادة retrospective significance (صنع التاريخ في اللحظة النهائية).

هذه اللحظات أدوات مفهومية، تجريدات من المستوى الثاني [:تجريد من تجريدات—م] للعمليات التي تتغذى على بعضها البعض. وهي بذلك لا يُقصد بها توفير وصف واقعي لعمل أية حكاية مفردة. إنما هي تساعدنا على فهم لماذا لا تتساوى كل لحظات الصمت ولماذا لا يمكن تناولها – أو إعادة تناولها – بنفس الطريقة. بتعبير آخر، أية حكاية تاريخية هي حزمة خاصة من لحظات الصمت، نتيجة لعملية فريدة، وبالتالي ستختلف العملية المطلوبة لتفكيك لحظات الصمت هذه.

تعكس الاستراتيجيات الموظفة في هذا الكتاب هذه التنوعات. فكل حكاية من الحكايات التي عولجت في الفصول الثلاثة التالية [من كتاب المؤلف–م] تجمع أنواعا متنوعة من لحظات الصمت. في كل حالة تتقاطع لحظات الصمت هذه أو تتراكم عبر الزمن لتُنْتِج مزيجا فريدا. وفي كل حالة أستعْمِل مدخلا مختلفا للكشف عن المواضعات conventions والتوترات داخل هذا المزيج.

في الفصل الثاني أرسم الخطوط العامة لصورة عبد سابق أصبح كولونيلا، هو الآن شخصية منسية في ثورة هايتي [:سلسلة انتفاضات وحروب ضد العنصرية في هايتي بين 1791 و1804–م]. كانت الأدلة المطلوبة لرواية قصته متاحة في المجموعة التي درستها برغم فقر المصادر. اكتفيت بإعادة ترتيب الأدلة لخلق حكاية جديدة. تكشف حكايتي البديلة بالتدريج عن لحظات الصمت التي دَفَنَت حتى الآن قصة الكولونيل.

موضوع الفصل الثالث هو إسكات الكتابة التاريخية الغربية بصفة عامة لثورة هايتي. يرجع الإسكات أيضا لعدم تكافؤ قوة إنتاج المصادر والأرشيفات والحكايات. لكن إذا كنتُ على حق في أن هذه الثورة على نحو ما حدثت لم يكن تصورها ممكنا، يكون عدم أهمية القصة منقوشا بالفعل في المصادر، بصرف النظر عما يكشفه من أمور أخرى. ليس لدينا هنا وقائع جديدة؛ ولا حتى وقائع مُهْمَلة. كان عليّ هنا أن أجعل لحظات الصمت تتحدث عن نفسها. وقد قمت بذلك بالمقارنة بين روح العصر وكتابات المؤرخين عن الثورة نفسها وحكايات عن تاريخ العالم، حيث تصبح فاعلية الصمت الأصلي ظاهرة للعيان بالكامل.

تقدم لي تيمة الفصل الرابع، وهي اكتشاف أمريكا، تركيبا آخر، وبالتالي تجبرني على تبني استراتيجية ثالثة. كان لديّ هنا وفرة في كلٍّ من المصادر والحكايات. حتى 1992 كان هناك شعور – وإن كان زائفا وحديثا – بالاتفاق العام على أهمية رحلة كولومبس الأولى. والمعتقدات الأساسية للكتابة التاريخية قد حُورت ودُعمت من خلال الاحتفالات العامة التي بدا أنها تعزز دلالة هذه المعتقدات. داخل هذا الجسم المفتوح على مصراعيه لم تَنْتُج لحظات الصمت حقا عن غياب الوقائع أو التفسيرات بقدر ما نَتَجَت عن الصراع على الاستحواذ على شخصية كولومبوس. هنا لم أقترح قراءة جديدة لنفس القصة كما فعلت في الفصل الثاني، أو حتى تفسيرات بديلة كما في الفصل الثالث، وإنما بيَّنْتُ بالأحرى كيف أن الاتفاق المزعوم بشأن كولومبوس يخفي فعليا تاريخ صراعات. وتتصاعد الممارسة المنهجية

إلى الذروة في حكاية عن الاستحوازات المتنافسة على اكتشاف [الأمريكتين]. وتظهر لحظات الصمت بين ثنايا الصراعات بين المفسرين المتنوعين.

إذن لا يمكن دراسة إنتاج الحكاية التاريخية من خلال التتابع الزمني المحض للحظات صمتها. فاللحظات التي أميز بينها هنا تتطابق في الزمن الواقعي. فهي تبلور فحسب، كأجهزة كشف، جوانب من الإنتاج التاريخي الذي يكشف على أفضل نحو متى وأين تدخل القوة إلى الرواية.

لكن حتى هذه الصياغة مضلِّلة إذا كانت توحي بأن القوة توجد خارج القصة وبالتالي يمكن سد الطريق عليها أو استئصالها. تتبُّع القوة من خلال "اللحظات" المختلفة يساعدنا ببساطة على التشديد على الطبيعة العملياتية بشكل أساسي للإنتاج التاريخي، للإصرار على أن [سؤال] ما هو التاريخ أقل أهمية من [سؤال] كيف يعمل التاريخ؛ وأن القوة نفسها تعمل يدا بيد مع التاريخ؛ وأن ما يقال عن تفضيلات المؤرخين السياسية ضئيلة التأثير على معظم ممارسات القوة الواقعية. ويفيدنا هنا تحذير من فوكو: "لا أومن بأن سؤال/ من يمارس القوة؟/ يمكن الإجابة عنه ما لم تتم الإجابة في نفس الوقت عن ذلك السؤال الآخر/ كيف يحدث ذلك؟"(32).

القوة لا تدخل القصة مرة واحدة وإلى الأبد، بل في أوقات مختلفة ومن زوايا مختلفة. إنها تسبق الحكاية بالمعنى الدقيق وتشارك في خلقها وفي تفسيرها. وبالتالي تظل متصلة بالمسألة حتى إذا استطعنا أن نتخيل تاريخا علميا بالكامل، حتى إذا تخلصنا من تفضيلات المؤرخين وراهنًا على طور منفصل بعد–وصفي post–descriptive. في التاريخ، القوة تبدأ عند المنبع.

تبدأ لعبة القوة في إنتاج حكايات بديلة مع الخلق المزدوج للوقائع والمصادر، لسببين على الأقل. الأول أن الوقائع لا تكون أبدا بلا معنى: فهي لا تُصبح بالفعل وقائع إلا لأنها مهمة بمعنى ما، ولو في الحد الأدنى. والثاني أن الوقائع لا تُخلق متساوية: فخلق الآثار هو دائما خلق للحظات صمت. بعض ما يحدث يُلاحَظ منذ البداية؛ وغيره لا. بعضه يترك علامات فيزيائية؛ وغيره لا يترك. ما حدث يترك آثارا، بعضها عيني تماما – مباني، جثث، إحصاءات سكانية، نُصُب تذكارية، يوميات، حدود سياسية – تحد من نطاق ودلالة أية حكاية تاريخية.

هذا هو أحد الأسباب الكثيرة التي تَحُول دون تمرير أية قصة خيالية كتاريخ: تقوم مادية العملية الاجتماعية التاريخية (التاريخانية 1) بإعداد المنصة للحكايات التاريخية التي ستأتي في المستقبل (التاريخانية 2).

مادية هذه اللحظة الأولى واضحة للغاية بحيث يعتبرها البعض منا أمرا مسلما به. إنها لا تتضمن أن الوقائع موضوعات بلا معنى تنتظر اكتشافها تحت خاتم لا زمني، ولكن، بشكل أكثر تواضعا، أن التاريخ يبدأ بأجسام ومصنوعات: أفكار حية وحفريات ونصوص ومباني[33].

كلما كبرت الكتلة المادية كلما سَهُلَ وقوعنا في فخها: المقابر الجماعية والأهرامات تُقَرِّب التاريخ بينما تجعلنا نشعر بضآلتنا. فالقلعة والحصن وميدان المعركة والكنيسة، كل هذا الأشياء أكبر منا، تملؤنا بواقعية الحيوات الماضية، وتبدو لنا وكأنها تتحدث عن ضخامة نعرف عنها القليل باستثناء أننا جزء منها. إنها صلبة بحيث يستحيل إغفالها، ورائعة بحيث يستحيل أن تكون محايدة، إنها غموض التاريخ. إنها تعطينا القوة للمسها، ولكن ليس لإمساكها بثبات في أيدينا – ومن هنا سحر جدرانها المتآكلة. إننا نشك في أن عينيها تخفي أسرارا من العمق بحيث أنه ما من وحي يمكن أن يبدد لحظات صمتها. إننا نتخيل الحيوات تحت مدافع الهاون، ولكن كيف ندرك نهاية صمت بلا قاع؟

هوامش الفصل الخامس

(*) هذه ترجمة الفصل الأول من كتاب: إسكات الماضي: القوة وإنتاج التاريخ: Michel-Rolph Trouillot, Silencing the Past: Power and the Production of History (Beacon Press, Boston 1995).
والفصل بعنوان: The Power in the Story.

(1) كانت نظريات التاريخ التي ولّدت عددا هائلا من المناقشات والنماذج والمدارس الفكرية منذ أوائل القرن التاسع عشر على الأقل موضوعا لعدد من الدراسات والمختارات والملخصات. انظر: Henri-Irenee Marrou, De la Connaissance historique (Paris: Seuil, 1975 [1954]); Patrick Gardiner, ed., The Philosophy of History (Oxford: Oxford University Press, 1974); William Dray, On History and Philosophers of History (Leiden, New York: Brill, 1989); Robert Novick, That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession (Cambridge: Cambridge University Press, 1988). إنني واثق من أن كثيرا من عمليات مفهمة التاريخ تميل إلى تفضيل جانب واحد من التاريخانية على الآخر؛ وأن معظم المناقشات عن طبيعة التاريخ تنبثق بدورها من طبعة أو أخرى من أحادية الجانب هذه؛ وأن أحادية الجانب هذه نفسها ممكنة لأن معظم نظريات التاريخ قد بُنيت بغير انتباه كبير لعملية إنتاج الحكايات التاريخية.
وقد حاول كثير من الكُتّاب أن يشقوا طريقا بين القطبين الموصوفين هنا. في هذا الكتاب، يتقاطع عدد من الأفكار الجزئية، وليس دائما عن طريق الاقتباس المباشر، مأخوذة من كتاب الثامن عشر من برومير لماركس Marx the Eighteenth Brumaire، وكتابات لجان شيسنو Jean Chesnaux ومارك فيرو Marc Ferro وميشيل دو سرتو Michel de Certeau ودافيد و. كوهن David W. Cohen وراناجيت جوها Ranajit Guha وكرزيستوف بوميان Krzysztof Pomian وآدام شاف Adam Schaff وتزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov. أنظر: Jean Chesneaux, Du Passé faisons table rase (Paris: F. Maspero, 1976); David W. Cohen, The Combing of History (Chicago: University of Chicago Press, 1994); Michel de Certeau, L'Ecriture de l'histoire (Paris: Gallimard, 1975); Marc Ferro, L'Histoire sous surveillance (Paris: Calmann-Levy, 1985); Ranajit Guha, "The Prose of Counter Insurgency," Subaltern Studies, vol. 2, 1983; Karl Marx, The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte (London: G. Allen & Unwin, 1926); Krzysztof Pomian, L'Ordre du temps (Paris: Gallimard, 1984); Adam Schaff, History and Truth (Oxford: Pergamon Press, 1976); Tzvetan Todorov, Les Morales de l'histoire (Paris: Bernard (Grasset, 1991

(2) Todorov, Its Morales, 129-130

(3) Hayden White, Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1973); Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1978); The Content of the Form: Narrative Discourse and Historic Representation (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, (1987

(4) في الواقع، كل حكاية يجب أن تجدد هذا الادعاء مرتين. من وجهة نظر إجرائها أو إجراءاتها المباشرة، تطرح

الحكاية ادعاءً بالمعرفة: أن ما قيل إنه قد حدث يقال إنه معروف أنه حدث. وكل مؤرخ يأتي بحكاية معها شهادة تشهد بصحتها، مهما كانت محدوديتها. ومن وجهة نظر الجمهور، يجب أن تمر الحكاية التاريخية باختبار القبول، مما يزيد ادعاء المعرفة قوة: ما قيل إنه حدث، آمنوا بأنه حدث.

(5) للاطلاع على مناقشة للاختلافات بين الرواية الخيالية والاختلاق والكتابة التاريخية وأنواع ادعاء الحقيقة المختلفة، أنظر: Todorov, Les Morales, 130-169. وانظر أيضا الفصل الخامس [من الكتاب الذي ينتمي له هذا الفصل، وهو غير مترجم هنا– م] بشأن صحة الحكاية.

(6) Pomian, L'Ordre du temps, 109-111

(7) الإثباتات هي بُنى جرى تقعيدها لغويا، يعبر من خلالها المتحدثون عن التزامهم بموقف في ضوء الإثباتات المتاحة. أنظر مثلا: David Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, 3d ed. (Oxford: Basil Black-well, 1991), 127. يمكن أن يكون الاختلاف في التنميط المعرفي بين الشاهد وغير الشاهد مطلبا يخص التعقيد اللغوي.

(8) Arjun Appadurai, "The Past as a Scarce Resource," Man 16 (1981): 201-219

(9) للإطلاع على تطورات هذه المناقشة، أنظر: Paula Brown and Donald E Tuzin, editors, The Ethnography of Cannibalism (Washington, D.C.: Society for Psychological Anthropology, 1983); Peter Hulme, Colonial Encounters (London and New York: Methuen, 1986); and Philip P. Boucher, Cannibal Encounters (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1992).

(10) Ralph W. Steen, Texas: A Story of Progress (Austin: Steck, 1942), 182; Adrian N. Anderson and Ralph Wooster, Texas and Texans (Austin: Steck-Vaughn, 1978), 171

(11) تعتمد هذه القائمة الجزئية للـ"حقائق" المتنازع عليها وفهمي للجدل عن الآلامو على مصادر شفوية ومكتوبة. فقد أجرت مساعدتي ريبكا بنيت Rebecca Bennette لقاءات تليفونية مع جايل لفنج بارنز Gail Loving Barnes من "أخوات جمهورية تكساس"، وجاري ج. (جاب) جابهارت Gary J. (Gabe) Gabehart من "مجلس العلاقات القبلية". شكرا لهما وكذلك لكارلوس جويرا Carlos Guerra على تعاونهم. وتتضمن المصادر المكتوبة مقالات في الصحف المحلية، خصوصا سان أنطونيو اكسبرس نيوز، التي تنشر عامود جويرا: (Carlos Guerra, "Is Booty Hidden Near the Alamo?" San Antonio Light, 22 August 1992; Carlos Guerra, "You'd Think All Alamo Saviors Look Alike," San Antonio Express News, 14 February 1994; and Robert Rivard, "The Growing Debate Over the Shrine of Texas Liberty," San Antonio Express News, 17 March 1994). وتشمل أيضا نشرات أكاديمية: Edward Tabor Linenthal, "A Reservoir of Spiritual Power: Patriotic Faith at the Alamo in the Twentieth Century," Southwestern Historical Quarterly 91 (4) (1988): 509-31; Stephen L. Hardin, "The Felix Nunez Account and the Siege of the Alamo: A Critical Appraisal," Southwestern Historical Quarterly 94 (1990): 65-84، وكذلك كتاب محل جدل: Jeff Long, Duel of Eagles: The Mexican and the U.S. Fight for the Alamo (New York: William Morrow, 1990)

(12) Arthur A. Butz, "The International 'Holocaust' Controversy," The Journal of Historical Review (n.d.): 5-20; Robert Faurisson, "The Problem of the Gas Chambers," Journal of Historical Review (1980)

(13) Pierre Vidal-Naquet, Les Assassins de la mémoire: "Un Eichmann de papier" et Autres essais sur le révisionnisme (Paris: La Découverte, 1987); Jean-Claude Pressac, Les Crématoires

d'Auschwitz: La machinerie de meurtre de masse (Paris: CNRS, 1993); Deborah E. Lipstadt, Denying the Holocaust: The Growing Assault on Truth and Memory (New York: The Free Press, 1993); Faurisson, "The Problem of the Gas Chambers"; Mark Weber, "A Prominent Historian Wrestles with a Rising Revisionism," Journal of Historical Review 11 (3) (1991): 353-359

تقدم الفوارق بين هذه التفنيدات دروسا في الاستراتيجيات التاريخية. فكتاب برساك Pressac يواجه مباشرة تحدي المراجِعين [:الذين يعيدون دراسة أو إثارة قضية بما يعرض الرؤية المستقرة أو السائدة للتشكيك – م] بمعاملة الهولوكوست كأي خلاف تاريخي آخر والتعامل مع الحقائق، والحقائق فقط. إنها الطريقة الأكثر "أكاديمية" على الموضة القديمة. فهناك نحو 300 هامش للإحالات الأرشيفية وصور كثيرة ورسوم بيانية وجداول توثق لآلة الموت الهائلة التي أقامها النازيون. تتخذ ليبشتات Lipstadt موقفا يقول أنه لا يجب الجدل بشأن "الحقائق"، لأن هذا الجدل يضفي الشرعية على نزعة المراجعة؛ وتفضل أن تشتبك مع المراجعين بشكل جدالي بشأن دوافعهم السياسية، وهو أمر يبدو لي أقل إضفاء للشرعية ويتطلب تلميحات عديدة إلى جدالات عينية. يرفض فيدال-ناكيه Vidal-Naquet عن وعي القول بأن الجدل بشأن "الحقائق" والإيديولوجيا منفصلان عن بعضهما البعض. وبرغم أنه يتجنب ذكر أسماء، فإنه يعبر باستمرار عن غضبه الأخلاقي، ليس فقط تجاه الرواية المراجعة، ولكن أيضا تجاه الهولوكوست. لن تكون ثمة مراجعة إذا لم يكن هناك هولوكوست. تترك له هذه الاستراتيجية مساحة لنقد منهجي وسياسي معا لنزعة المراجعة، وتحد إمبريقي بشأن الحقائق التي اختار أن يجادل بشأنها. يتجنب فيدال-ناكيه أيضا فخ الاستثناء اليهودي، الذي يمكن أن يؤدي بسهولة إلى رؤية التاريخ كثأر ويبرر استعمال رواية الهولوكوست وإساءة استعمالها: أوشفيتز لا تستطيع أن تفسر صبرا وشاتيلا.

(14) كما أشرتُ، هناك تنوع واسع في وجهات النظر التي عبر عنها المراجعون، لكن السنوات الخمس عشرة الأخيرة شهدت تحولا إلى موقف أكثر أكاديمية، سأعود إليه لاحقا.

(15) White, The Content of Form

(16) انظر: See Hayden White, "Historical Emplotment and the Problem of Truth," in Probing the Limits of Representation, S. Friendlander, ed., (Berkeley: University of California Press, 1992), 37-53

(17) Ebbinghaus, Memory: A Contribution to Experimental Psychology (New York: Dover, 1964 [18851); A. J. Cascardi, "Remembering," Review of Metaphysics 38 (1984): 275-302; Henry L. Roediger, "Implicit Memory: Retention Without Remembering," American Psychologist 45 (1990): 1043-1056; Robin Green and David Shanks, "On the Existence of Independent Explicit and Implicit Learning Systems: An Examination of Some Evidence," Memory and Cognition 21 (1993): 304-317; D. Broadbent, "Implicit and Explicit Knowledge in the Control of Complex Systems," British Journal of Psychology 77 (1986): 33-50; Daniel L. Schackter, "Understanding Memory: A Cognitive Neuroscience Approach," American Psychologist 47 (1992): 559-569; Elizabeth Loftus, "The Reality of Repressed Memories," American Psychologist 48 (1993): 518-537

(18) لا تشمل أرقام الولايات المتحدة مستعمرة لوزيانا Lousiana. للاطلاع على رواية ومصادر بشأن هذه التقديرات، انظر: Philip Curtin, The Atlantic Slave Trade: A Census (Madison: University of Wisconsin Press, 1969). ولا تُلغي التحديثات التالية لأرقام كورتن Curtin عن صادرات العبيد من أفريقيا مصداقية الصورة العامة التي يقدمها عن الواردات عبر الأمريكتين.

(19) Robert William Fogel and Stanley L. Engerman, Time on the Cross: The Economics of American Negro Slavery (Boston: Little, Brown, 1974); B. W. Higman, Slave Populations of the British Caribbean, 1807-1834 (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1984); Ira Berlin and Philip D. Morgan, eds., Cultivation and Culture: Labor and the Shaping of Life in the Americas (Charlottesville: The University Press of Virginia, 1993); Robert William Fogel, Without Consent or Contract: The Rise and Fall of American Slavery (New York: W. W. Norton, 1989)

(20) W. E. B. Du Bois, Some Efforts of American Negroes for Their Own Social Betterment (Atlanta: The Atlanta University Press, 1898); Black Reconstruction in America: An Essay Toward a History of the Part Which Black Folk Played in the Attempt to Reconstruct Democracy in America, 1860-1880 (New York: Russell and Russell, 1962); Eric Foner, Reconstruction: America's Unfinished Revolution, 1863-1877 (New York: Harper & Row, 1988).

(21) E.g., Du Bois, Black Reconstruction; Edward Franklin Frazier, Black Bourgeoisie (Glencoe: Free Press, 1957); Melville J. Herskovits, The Myth of the Negro Past (Boston: Beacon Press, 1990 [19411); Gunnar Myrdal, An American Dilemma: The Negro Problem and Modern Democracy (New York, London: Harper & Bros. 1944).

(22) يلاحظ بول ريكور Paul Ricoeur عن حق أن كلا من الوضعيين المنطقيين [مدرسة بريطانية فلسفية– م] وخصومهم قد دشنوا وواصلوا جدلهم الطويل عن طبيعة المعرفة التاريخية بغير اهتمام يذكر بالممارسة الفعلية للمؤرخين: Paul Ricoeur, Time and Narrative, vol. 1, trans. Kathleen Mclaughlin and David Pellauer (Chicago: University of Chicago Press, 1984), 95. ويستعمل ريكور نفسه أعمال المؤرخين الأكاديميين بوفرة، من أوربا والولايات المتحدة. وهناك كُتاب جُدُد يستعملون الأعمال التاريخية السابقة والمعاصرة، بدرجات مختلفة من التركيز على مدارس [تاريخية] أو بلدان بعينها، واستطرادات متنوعة بشأن العلاقة بين تطور التاريخ وتطور الأشكال الأخرى المختلفة المُمَاسّة للمعرفة. انظر: De Certeau, L'Écriture; François Furet, L'Atelier de l'histoire (Paris: Flammarion, 1982); Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob, Telling the Truth about History (New York: W. W. Norton, 1994). مثل هذه الأعمال تقرّب النظرية بشكل أكبر من الممارسة الواقعية، ولكن هل الإنتاج التاريخي محصور في ممارسة المؤرخين المحترفين؟ أولا، من وجهة نظر فينومينولوجية، يمكن القول بأن كل البشر لديهم وعي قبل–فكري بالتاريخ يعمل كخلفية لخبرتهم بالصيرورة الاجتماعية. انظر: David Carr, Time, Narrative, and History (Bloomington: Indiana University Press, 1986). وثانيا، والأكثر أهمية لغرضنا هنا، أن التاريخ الروائي لا يقتصر إنتاجه على المؤرخين المحترفين. انظر: Cohen, The Combing of History; Ferro, L'Histoire sous surveillance; Paul Thompson, The Myths We Live By (London and New York: Routledge, 1990)

(23) Ferro, L'Histoire sous surveillance

(24) Dorothy Ross, The Origins of American Social Science (Cambridge and New York: Cambridge University Press, 1994).

(25) لقد ساهم كروكت Crocket نفسه في تصور الآخرين له كبطل، بدءا بكتابة سيرته الشخصية. لكن أهميته التاريخية ظلت محدودة إلى أن أصبح شخصية قومية بعد ظهور المسلسل التليفزيوني وفيلم جون وين John Wayne "الآلامو" عام 1960.

(26) هناك استثناءين بارزين، كل بطريقته، هما: Cohen's The Combing, Ferro's L'Histoire sous surveillance, and de Certeau's L'Écriture de l'histoire

(27) بالفعل، من هنا فصاعدا سأستعمل كلمة "تاريخ" في معظم المرات بالدرجة الأولى بهذا المعنى في الذهن. وسأحتفظ بتعبير "العملية الاجتماعية التاريخية" للجانب الآخر من التمييز.

(28) أطلق على شاغلي مثل هذه المواضع البنيوية وغيرها كلمة "فاعلين"، للإشارة من البداية إلى رفض ثنائية البنية/ الفاعلية. المواضع البنيوية هي في نفس الوقت تُمكِّن وتحدِّد.

(29) انظر: Alain Touraine, Le Retour de l'acteur (Paris: Gallimard, 1984), 14-15.

(30) إنني أتوسع هنا معتمدا على: W. G. Runciman, A Treatise on Social Theory, vol. I: The Methodology of Social Theory (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), 31-34.

(31) Ferro, L'Histoire sous surveillance; Marshall Sahlins, Historical Metaphors and Mythical Realities: Structure in Early History of the Sandwich Islands Kingdom (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1981); Hélène Carrère d'Encausse, La Gloire des nations, ou, la fin de l empire soviétique (Paris: Fayard, 1990); Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man (New York: Free Press, 1992); William F. Lewis, "Telling America's Story: Narrative Form and the Reagan Presidency," Quarterly Journal of Speech 73 (1987): 280-302.

(32) Michel Foucault, "On Power" (original interview with Pierre Boncenne, 1978) in Michel Foucault, Politics, Philosophy, Culture. Interviews and Other Writings, ed. Lawrence D. Kritzman (New York and London: Routledge, 1988), 103.

(33) لا يفلت التاريخ الشفاهي من هذا القانون. ولكن استثناءً، في حالة النقل الشفاهي تظل لحظة خلق الواقعة محمولة في أجساد الأفراد أنفسهم الذين يشاركون في النقل. انظر: The source is alive